أحمد شوقي ولامارتين (LAMARTINE)

أ. د. عبد المجيد حنون
جامعة باجي مختار، عنابة.

1.مقدمة

يذهب العلماء والمفكرون مذاهب شتى في التمييز بين الإنسان وبقية الكائنات الحية، انطلاقا من وجهات نظر معرفية قوامها تخصص كل واحد منهم، إلا أنها تنطلق في مجملها من تميز الإنسان بالعقل، وما ينتج عنه من تصرفات وسلوكات، تطورت مع مرور الزمن، حتى تبلورت في قدرات مهارات ومعارف وأفكار وعلوم، راح كل فريق يزعم أن ميدانه العلمي هو أعظم ابتكار توصل إليه العقل البشري، معتمدين في ذلك على ما جاء به ذلك الابتكار من معلومات ومعارف، وعلى أثره أو آثاره في تطور حياة الإنسان، كالفلسفة قديما أو الطب والتكنولوجيا بمختلف تفرعاتها حديثا أو التكنولوجيا الإعلامية والرقمية اليوم.

ولا يماري أحد في أهمية العلوم السابقة الذكر أو غيرها، وما نتج عنها جمعاء من ابتكارات واختراعات قد يبدو البعض منها –اليوم– بسيطا، كالإبرة مثلا، إلا أنها عادت بالخير الكثير على الإنسان، وساعدته في

مجابهة ظروف الحياة، غير أن تلك المعارف والعلوم والابتكارات ما كان لها أن تكون لولا اعتمادها على أعظم إنجاز معرفي جاء به الإنسان في مختلف أنحاء المعمورة، وهو اللغة التي كانت ومازالت وسيلة أي تواصل أو تفكير ووعائهما، ووسيلة أهم فن في حياة الإنسان، يعبر فيه عن أفراحه وأتراحه، ويصور فيه طموحاته وآماله البسيطة جدا والعظيمة جدا، والمقصود بذلك الفن بطبيعة الحال فن الكلم أو فن الأدب، كما هو متعارف عليه في كثير من الثقافات.

لقد مارس الإنسان، منذ أقدم العصور، فن الأدب في أشكال متنوعة تماشيا مع خصائص كل لغة ومحمولاتها الثقافية، ومع البيئة التي يصدر عنها أو يصدر إليها، فمال البعض إلى أدب الحكمة كالهنود، ومال آخرون إلى الأدب التمثيلي كالإغريق، ومال غيرهم إلى الأدب الغنائي كالعرب، كل عبر بما يناسبه، ويتماشي مع نمط حياته.

وعلى الرغم من الاختلاف في المضامين، إلا أن فن الأدب ارتبط في عمومه بالشكل الشعري عند الكثير من الأمم، الأمر الذي جعل الشعراء مثار اهتمام وتقدير، لأنهم يرون مالا يراه الآخرون، ويسمعون ما لا يسمعه غيرهم، ويقولون ما لا يقوله أحد: إنهم يصنعون بالكلام السعادة أو الشقاء، البهجة أو الغضب. وبذلك حظي الشعراء باهتمام الناس وتقديرهم، وتفاخرت الأقوام والأمم بشعرائها قديما وحديثا، وأطلقت عليهم ألقابا شتى، وأقامت لهم النصب والاحتفالات، كما هو الشأن اليوم في الاحتفال بشاعرين يمثل كل واحد منهما معلما شعريا عند أمته، هما بطبيعة الحال شاعر فرنسا العظيم ألفونس دو لامارتين (Alphonse De

(Lamartine، وشاعر العرب الأمير أحمد شوقي، اللذين ينتميان إلى ثقافتين مختلفتين، وإلى موروثين وذوقين أدبيين متباينين. ورغم ذلك الاختلاف والتباين، إلا أن نقاط تقاطع عديدة تجمع بينهما، سنشير إلى البعض منها، من خلال سيرة الرجلين ونتاجهما الشعري، علها تكون محل دراسات أدبية مقارنة دقيقة وعميقة، يقوم بها باحثون ومختصون لتوضيح العلائق الشعرية التي تربط بين الرجلين، وتفسر جوانب من عبقريتهما.

2. الفونس دو لامارتين Alphonse De Lamartine (1790-1869).

شاعر فرنسي ينتمي إلى أسرة فرنسية نبيلة وعريقة، إلا أنها عرفت ما عرفته طبقة النبلاء بعد الثورة الفرنسية، فنشأ شاعرنا نشأة قروية في مسقط رأسه (ماكون Macon)، وتلقى في صباه تعليما دينيا في مؤسسات تعليمية عدة، تشبع فيها بالإحساس الديني، ونما فيها عنده ميله إلى الطبيعة، وكان ذلك مبعث أشعاره الأولى التي تغنت بالأحاسيس الدينية وبجمال الطبيعة. وخلال مرحلة التعليم ربط علاقات صداقة لن تنفصم عراها رغم عوادي الزمن.

ونظرا إلى انتمائه الطبقي، ونزعة أسرته إلى الشرعية في الحكم، عاش ألفونس، بعد تخرجه من المعهد سنة 1808 حياة فراغ، ملؤها التسكع والتجوال والقراءات المتنوعة، فقرأ لكثير من الأعلام، مثل هوميروس وشاطوبريان ومادام دو ستايل...الخ، وسافر إلى إيطاليا (1811-1812)، لأن الرحلة كانت أهم وسيلة تهذيبية في ذلك الوقت، وعاش أكثر من مغامرة عاطفية سيكون انعكاسها في نتاجاته الأدبية الأولى شعرا ومسرحا.

ويبدو أن عودة الملكية دفعته إلى شيء من الاستقرار في حياته، حيث التحق سنة 1814 م بوظيفة الحراسة الشخصية (garde de corps)، ولكن متطلبات هذه الوظيفة ونزواته الإبداعية أمران لا يلتقيان، فاستقال سنة 1815، وراح يتجول حتى حط الرحال في أكتوبر من سنة 1816 في برك إيكس البروفنسالية (Aix-en-provence)، أين تعرف على حبه الكبير، التي خلدها في رائعته الشعرية البحيرة –le lac– باسم (إلفير Elvire)، وهي (جولية بوشو دي إيريت julie Bouchaud des Herettes)، التي كانت تعيش حياة زوجية غير متكافئة، بحكم فارق السن الكبير بينها وبين زوجها، الأمر الذي قد يفسر متاعبها الصحية.

وتواعد الحبيبان، بعدما عاشا أسابيع من السعادة والهناء، على التلاقي في الموقع نفسه صائفة 1817. فحضر شاعرنا في الموعد المحدود وانتظر محبوبته طويلا، غير أنها لم تحضر، لأن القدر شاء غير ذلك، فلم يجد غير تلك البحيرة التي عرفت لقاءهما وسعاتهما يبثها لواعج قلبه ويناجيها، فشرع في كتابه قصيدته الشهيرة "البحيرة"، التي ستكون رائعته وعلامة شهرته، وستكون من روائع الشعر الفرنسي، وسيكون لها أثر في العديد من الآداب، بما في ذلك الأدب العربي، بدءا بأمير الشعراء أحمد شوقي.

وبعد فترة قصيرة من الموعد تموت جولية، فيغوص شاعرنا في حالة من الانعزال، منهمكا في كتابات متنوعة وغزيزة مثل: "التاملات" و"أنشودة الحزن" و"صول". وفي سنة 1820، يلتحق بالسلك الدبلوماسي ملحقا بسفارة فرنسا في نابولي بإيطاليا، وينشر "التأملات الشعرية"، ويتزوج الآنسة إليزة بيرش Elisa Birch، محققا بذلك الكثير من الطموحات، فيسافر

كثيرا، وينشر العديد من المصنفات الشعرية والنثرية وينجب الأبناء. ويبلغ قمة المجد سنة 1830، عندما يدخل الأكاديمية الفرنسية Académie française. وتزيده ثورة جويلية 1830 دفعا في عالم السياسة، التي سيمارسها طيلة عشرين سنة، مازجا فيها بين الكتابة الأدبية الإبداعية والأدبية المعرفية والكتابة في السياسة، مع قيامه برحلات عديدة نحو الشرق، زار خلالها بلاد اليونان وفلسطين وسورية ولبنان، وعاش خلالها مأساة وفاة ابنته جولية Julia في بيروت.

وفي سنة 1851 يخرج من عالم السياسة مثقلا بالديون، فيخصص ما تبقى له من العمر لأعمال أدبية ضخمة متعددة ومتنوعة.

لقد أحدث لامارتين بكتاباته قطيعة أدبية، حيث كان الشعر قبله "موزعا ما بين السرير وقاعة الجلوس، أو الشارع والأكاديمية"، وانتقل عنده من خطاب شعري إلى شعر غنائي يغوص في زوايا الذات البشرية، وأصبح الحدث الشعري عنده "تأملا" وليس مجرد قول، لأن الشعر لديه هو فن الفنون الذي يكشف خبايا الحياة الداخلية، بفضل شبكة من الصور المثيرة.

يعد لامارتين، بنتاجه الغزير والمتنوع الذي جمعه ونشره مابين 1860 و1866 في واحد وأربعين (41) مجلدا، جمع فيها أشعاره ومسرحياته ومراسلاته ورحلاته وكتاباته الأدبية المعرفية وكتاباته السياسية وردوده على الآخرين ...إلخ، وبأسلوبه الشعري القائم على التصوير التأملي والتناسق في الإيقاع والقافية، وكأنه يمارس فعل التطريب العربي، يعد مؤسس الحداثة الشعرية الفرنسية، وأوضح مثال على ذلك مطولته الشهيرة "البحيرة"، التي ستكون مثار اهتمام أحمد شوقي كما سيتضح لاحقا.

3. أحمد شوقي (1869–1932):

ينحدر أحمد شوقي المصري الجنسية، والموطن العربي اللسان والهوى، والمسلم العقيدة، من أصول متعددة تركية وشركسية ويونانية وعربية، تجمعت وتفاعلت. فكان أحمد شوقي الذي جاء إلى الوجود سنة 1869، في أسرة ثرية جدا من أسر البلاط المصري، جمعت المال والجاه منذ عهد محمد علي باشا.

وقامت جدته اليونانية الأصل على تربيته، وكانت على صلة وطيدة بالقصر، فكانت تدخله إليه معها باستمرار، الأمر الذي جعله ينشأ في أجواء القصر الملكي نشأة أرستقراطية مرفهة، لا يربطها رابط بحياة الشعب ومعاناته.

التحق وهو في الرابعة من عمره بمكتب الشيخ صالح لحفظ القرآن الكريم، ومنه إلى مدرسة المبتديان الشهيرة، ومنها إلى المدرسة التجهيزية التي أظهر فيها تفوقا ونبوغا، وبدأ ينظم فيها أبياتا شعرية. ويدل التحاقه بالتجهيزية على أمرين اثنين: أولهما أن أسرته فضلت التعليم المدني الحديث العهد على التعليم الديني العريق والمنتشر. وثانيهما أن هذه المدرسة أتاحت له شيئا من الاحتكاك بأبناء الشعب المصري.

وبعدما أنهى تعلمه الثانوي المدني الأوروبي الطابع ألحقته أسرته بمدرسة الحقوق سنة 1885، ليتخرج منها سنة 1887 متخصصا في الترجمة، لأن دراسته المدنية ووسطه العائلي مكناه من إجادة ثلاث لغات هي: العربية والفرنسية والتركية، فاستثمر ذلك للتخصص في الترجمة التي كانت تدرس في مدرسة الحقوق.

وفي مدرسة الحقوق، ارتبط بأستاذ اللغة العربية الشيخ الأزهري محمد البسيوني، الذي كان يدبج القصائد الطوال في مدح الخديوي توفيق في المناسبات والأعياد، ويعرضها قبل إرسالها، على تلميذه المتميز أحمد شوقي، الذي كان يشير على أستاذه بإشارات فنية تثير دهشة الشيخ وإعجابه بتلميذه، وراح الشيخ يطري تلميذه في المحافل والمناسبات، وراح التلميذ يسير على درب شيخه في نظم قصائد في مدح الخديوي توفيق.

وهكذا جمع أحمد شوقي بين الموروث الأدبي العربي التقليدي الأصيل، ممثلا في شيخه الأزهري، وبين الثقافة الفرنسية التي بدأ ينفتح عليها بفضل تخصصه في الترجمة.

التحق، فور تخرجه، بالقصر موظفا وشاعرا رسميا تابعا للخديوي توفيق يلهج بذكره. وبعد سنة يرسله صاحب نعمته –على نفقته– إلى فرنسا لدراسة الحقوق، فيمكث في مدينة مونبلييه Montpellier سنتين، ويقضي السنتين الأخريين في باريس التي أصيب فيها بمرض خطير جعله يسافر إلى الجزائر –للاستجمام والراحة– ويقضي فيها حوالي شهرا ونصف الشهر.

وخلال السنوات الأربع قام بالعديد من الرحلات في الكثير من البلدان الأوروبية، وربط علاقات كثيرة مع أعلام فرنسيين، وأتقن اللغة الفرنسية إتقانا تاما، مكنه من دراسة الكثير من روائع الأدب الفرنسي، وروائع آداب العالم التي ترجمت إلى اللغة الفرنسية، وشاهد العروض المسرحية فأدرك أهمية فن المسرح، وأهمية الكتابة المسرحية، لأن النص المسرحي هو أساس أي عمل مسرحي.

وهكذا يدرك أحمد شوقي –نتيجة تفاعله مع روائع الأدب الفرنسي– أن الأدب العربي، على عراقته وجماله، بحاجة إلى إثراء وتطعيم وتجديد، فراح يقتدي بشعراء فرنسا أمثال فيكتور هيجو ولامارتين ودي موسيه، في نظم الشعر وفي كتابة المسرحيات، وبلغ إعجابه بلامارتين أي مبلغ، فهو يقول: "وترجمت القصيدة المسماة بالبحيرة من نظم "لامارتين"، وهي من آيات الفصاحة الفرنساوية، ثم أرسلتها إلى الباشا المشار إليه في كراس وبعض الكراس، ليطلع الجناب الخديوي عليها. وإذ كنت لا أتخذ لشعري مسودات رجوت أني أجدها عنده بعد العودة إلى مصر، ثم عدت دون ذلك عواد. وجربت خاطري في نظم الحكايات على أسلوب لافونتين الشهير، وفي هذه المجموعة شيء من ذلك " (كما ورد في مقدمته للجزء الأول من الديوان الصادر سنة 1898).

وهكذا، يقر أحمد شوقي نفسه بتفاعله مع حركات التجديد في الأدب الفرنسي، مركزا على الشاعر لامارتين، فترجم رائعة "البحيرة" أثناء بعثته الدراسية (1888-1892)، الأمر الذي يدل على أن شوقي كان سباقا في الاطلاع على قصيدة "البحيرة"، والإعجاب بها وترجمتها إلى العربية–رغم ضياع هذه الترجمة– قبل كل الترجمات العديدة الأخرى.

وبعد الرجوع من البعثة الدراسية، يلتحق بالقصر موظفا في الديوان وشاعرا مداحا، وشاعرا مجدد في المضامين، وفي الصور الفنية، حيث جدد في اللغة الشعرية، وفي الإيقاعات تماشيا مع فن الغناء والتلحين، وكاتبا مسرحيا خلص المسرح الشعري العربي من طابع التسلية واللهو، وأضفى عليه طابعا فنيا جميلا، بتناوله مواضيع جادة كالسياسة والتاريخ والحب شكل فني، قوامه اللغة الراقية والصورة الجميلة الموحية.

لم يعرف أحمد شوقي المتاعب التي عرفها "لامارتين" ولا مغامراته، لاختلاف مجتمعيهما، واختلاف ظروفهما الأسرية، وطبيعة ارتباطهما بالسلطان، ومع ذلك فقد عرف أحمد شوقي النفي من بلده إلى إسبانيا سنة 1914، التي قضى فيها خمس سنوات، انقطع فيها عن القصر ومباهجه، وانغمس في مجد العرب الضائع والتأمل في الحياة ، منتقلا بشعره من الوصف الجميل على التأمل الإيحائي، وكأنه يقتدي بالشاعر الفرنسي لامارتين.

وبعد رجوعه من المنفى سنة 1919، أدرك أن مصر بدأت تتغير نتيجة حركة 1919 السياسية، فتغير هو الآخر، حيث ارتبط بمصر وقضاياها أكثر من ارتباطه بالقصر، وجدد في تقنياته الفنية، حيث أصبحت أشعاره تلحن وتغنى، وأصبح الموسيقار والمغني محمد عبد الوهاب يتبعه كظله، وكتب جل مسرحياته الشعرية، واختير عضوا في مجلس الشيوخ، وطبقت شهرته الآفاق، فبايعه الشعراء والأدباء من العديد من الأقطار العربية سنة 1927 بإمارة الشعر العربي، بمناسبة إعادة طبع ديوانه "الشوقيات".

خلف أحمد شوقي تراثا أدبيا ضخما من حيث الكم، متنوعا من حيث الأجناس الأدبية، متطورا من حيث التسلسل الزمني، ومن حيث البناء الفني، نذكر منه ديوان "الشوقيات" في أربعة أجزاء، "الشوقيات الصغيرة"، والشوقيات المجهولة"، وسبع مسرحيات أشهرها "مجنون ليلى" و"مصرع كليوباترا".

4 . بين لامارتين وشوقي :

يقضي العقل والمنطق، ومنهج المقارنة الأدبية أن ننطلق في البحث عن العلائق والصلات أو نقاط التقاطع من السابق إلى اللاحق في استعراض ما يجمع بين الشاعرين.

عندما نمعن الفكر في حياة الرجلين وفي نتاجها الأدبي عموما والشعري منه على وجه الخصوص، نلاحظ جملة من العلائق والصلات تربط بينهما، كان البعض منها بفعل الصدفة التي لا دخل للشخص فيها، وكان البعض الآخر نتيجة تأثير أو تأثر قام بينهما، بفعل تعلم أحمد شوقي اللغة الفرنسية وسفره إلى فرنسا، ودراسته عيون الأدب الفرنسي وإعجابه بأعلام منه أمثال فيكتور هيجو V. Hugo، ودوموسيه De Musset، ولامارتين Lamartine على وجه الخصوص، كما ورد في مقدمة الجزء الأول من ديوانه في طبعة 1898. وسنكتفي بالإشارة إلى شيء منها مجرد إشارة، عل ذلك يكون محل بحث وتعمق فيما يربط هذين الشاعرين العظيمين.

1.4 أوجه التشابه :

1.1.4 الانتماء الطبقي: يتشابه الرجلان من حيث انتماؤهما الطبقي، إلى الطبقة الارستقراطية أو علية القوم، ورغم أن نتائج ذلك الانتماء لم تكن متشابهة بينهما في كل الجوانب، حيث تسبب للامارتين في متاعب بعد تغيير نظام الحكم (الثورة الفرنسية)، أتاح لأحمد شوقي حياة مرفهة وتكفلا به من القصر، غير أن ذلك الانتماء الطبقي جمع بينهما في تنشئة منظمة، وربط علاقات قد لا تتوفر لغيرهما من أبناء الطبقات الشعبية.

2.1.4. الجمع بين التعليم التقليدي القائم على الروح الدينية والأصالة اللغوية والأدبية، وبين التعليم المدني القائم على العقل والانفتاح على الآخر بفضل اللغات والآداب الأجنبية.

3.1.4. الرحلة: قام لامارتين بالعديد من الرحلات إلى بلدان شمال المتوسط مثل إيطاليا واليونان، وإلى بلدان شرقه مثل سوريا وفلسطين ولبنان وتركيا العثمانية، بفعل حب الرحلة الذي كان ظاهرة ثقافية في أوروبا خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، كما قام بعدة أسفار، بحكم وظيفته الدبلوماسية.

وقام أحمد شوقي أيضا بعدة رحلات إلى بلدان أوروبية على رأسها فرنسا وإسبانيا، وإلى بلدان غير أوروبية مثل الجزائر ولبنان، ولاشك أن هذا التشابه له آثار وانعكاسات في أدب كل واحد منهما، يصعب تبيان طبيعة ذلك في هذه العجالة، لأنه يحتاج إلى تمعن وتحليل في آثارهما.

4.1.4. الارتباط بالسلطة: ارتبط الرجلان بالسلطة القائمة في وقتيهما، رغم الاختلاف الكبير بين النظامين القائمين في فرنساومصر وقتذاك، وخدماهما واستفادا منها ماديا، كما استفادا منها في بناء شهرتيهما، بفضل الوسائل المتاحة لهما والعلائق التي توفرها السلطة.

كما استفادا من ارتباطهما بالسلطة الطابع الدبلوماسي وانعكاساته السلوكية، ثم انعكاساته اللغوية في التواصل مع الآخرين، الأمر الذي جعل لغتيهما الشعريتين تتسمان بشيء من الليونة الدبلوماسية، وبشيء من التلاعب البلاغي في استعمال الاستعارات والكنايات والمجازات.

2.4 أوجه التأثير والتأثر :

صرح أحمد شوقي في مقدمة الجزء الأول من ديوانه طبعة 1898 أنه قرأ أعمال العديد من الأدباء الفرنسيين، منوها بلامارتين وبرائعته "البحيرة" التي ترجمها، إلا أن تلك الترجمة ضاعت مع الأسف الشديد، وبذلك تكون الصلة أو العلاقة الأدبية بين لامارتين وشوقي ثابتة ومؤكدة، غير أن نتائجها الأدبية والفنية تحتاج إلى استقصاء دقيق في أعمال الرجلين وتحليلها، الأمر الذي لا يسمح به هذا المقام. ورغم ذلك نشير إلى مايلي:

1.2.4 ترجم أحمد شوقي بحيرة لامارتين –كما سبقت الإشارة– أثناء دراسته في فرنسا (ما بين 1888 و 1892). وعلى الرغم من ضياعها نستنتج ذلك أنه قرأها فعلا، واستوعبها، ورأى أنها أنموذج جميل يحسن أن يطلع عليه العرب –رغم تراثهم الشعري العريق– فترجمها. وإذا كان فعله هذا لم يؤت ثماره الأدبية العامة، فإن قيام شاعر بترجمة نص شعري لا يمكن أن لا تكون له انعكاسات أو آثار في نتاجه الشعري اللاحق. وعليه، فإن أشعار شوقي الوصفية أو الغزلية أو التأملية أو الغنائية التي جاءت بعد 1892 فيها شيء من "البحيرة"، وفيها شيء من أشعار لامارتين الشعرية، مهما كان ذلك الشيء دقيقا.

2.2.4 حظيت بحيرة لامارتين باهتمام الأوساط الأدبية العربية في مصر والشام، فترجمها البعض من الأدباء شعرا، أمثال علي محمود طه، وإبراهيم ناجي، ونيقولا فياض، وترجمها البعض الآخر نثرا، أمثال حسن الزيات، وجورج نيكولاوس.

وبغض النظر عن كل التساؤلات التي يطرحها هذا التعدد في الترجمة، فإن السؤال الأساس يبقى مطروحا كالتالي:

هل يرجع إقبال الأدباء العرب على ترجمة بحيرة لامارتين إلى انبهار كل واحد منهم بها، وعدم اقتناعه بعمل من سبقه، أم يرجع إلى رغبة كل واحد في تقليد أمير الشعراء، أو تعويض الخسارة التي لحقته ولحقت الساحة الأدبية العربية؟؟

إنه سؤال يحتاج إلى بحث واستقصاء، وقناعتي أم ما كتبه أحمد شوقي في مقدمة الجزء الأول من ديوانه سنة 1898 هو المحفز لتواتر الترجمات العربية لبحيرة لامارتين، وما نتج عن ذلك من تفاعلات شعرية، يرجع الفضل الأول فيها إلى أحمد شوقي، ثم إلى المترجمين بعد ذلك.

3.2.4 إذا كانت ترجمة شوقي لبحيرة لامارتين قد ضاعت، فإن تأثيراتها الفنية فيه لم تضع كلية، فها هو احمد شوقي ينظم قصيدته الشهيرة في وصف غابة "بولونيا Bois de Boulogne" التي تشبه من بعيد بحيرة لامارتين، عندما ينظر إليها الناظر من عل، فيبثها لواعجه، ويشكو إليها فراق الحبيب، بلغة خفيفة وصور إيحابية وإيقاعات غنائية مثلما فعل لامارتين في بحيرته.

يشكو أحمد شوقي للغاب الزمان مثلما شكا لامارتين فيقول :

يا غاب بولـون ولي ذمم عليك ولي عهـود
زمـن تقضـي للهوى ولنا بظلك، هل يعود؟
حــلم أريـد رجوعه ورجوع أحلامي بعيد؟

ثم يذكره بذكرى الحبيبة وبما تذوقه معها في رحابه، فيقول :

يا غاب بولون وبي وجد مع الذكرى يزيد

خفقت لرؤيتك الظلوع وزلزل القلب العميد

وأراك أقسى ما عهد ت فما تميل وما تميد

كم يا جماد قســاوة كم هكذا أبدا جحود؟

هلا ذكرت زمان كننا والزمان كما نريد؟

ويستمر أحمد شوقي في مخاطبة "غابة بولونيا" يبثها لواعجه، ويسائلها بلغة بسيطة وبإيقاع خفيف، فيشعر المستمع أو القارئ أنه يسمع لامارتين في "البحيرة" التي يبثها همومه وأشجانه، عندما حضر إلى الموعد ولم تحضر الحبيبة، فقال من بين مقاطع القصيدة المطولة:

O lac ! l'année à peine a fini sa carrière,
Et prés des flots chéris qu'elle devait revoir,
Regarde ! Je viens seul m'asseoir sur cette pierre
Où tu l'as vu s'asseoir!
O lac! Rochers muets ! Grottes! Forêt obscur!
Vous, que le temps épargne ou qu'il peut rajeunir,
Gardez de cette nuit, gardez, belle nature,
Au moins le souvenir!

إنها مقاطع تشكل مطولة شعرية تبدو، بتفاصيلها، مختلفة عن قصيدة شوقي، غير أن المتمعن في الموضوع وأجواء القصيدتين وإيقاعاتهما وبنائهما اللغوي يدرك التقارب الكبير بينهما، وبالتالي يدرك أن تأثر أحمد شوقي بلامارتين لم يضع رغم ضياع ترجمة البحيرة، ويدرك أن التواصل بين الشاعرين قائم.

وفضلا عن مطولة لامارتين "البحيرة" وقصيدة شوقي "غاب بولونيا"، فإن قصائد في الجزء الثاني من ديوان شوقي الوصفية والعاطفية تتسم بغنائية أثارت تساؤلات عند النقاد العرب، فتساءلوا مثلا عن قصيدته: خدعوها بقولهم حسناء"، ولو تذكروا غنائية لامارتين وجرأته وإعجاب شوقي به لما تساءلوا. ولاشك في أن دراسات مقارنة دقيقة قد تكشف الكثير من جوانب ذلك التواصل وامتداداته، بعد شوقي، في الشعر العربي الحديث..

4.2.4. كتب شوقي أواخر حياته مسرحيات شعرية، استمد مواضيعها من تاريخ الشرق وتراثه الأدبي، مثل "مجنون ليلى" و"مصرع كليوباترا" و"قمبيز"، ساعيا فيها، قدر المستطاع، إلى الحفاظ على الدقة في المعلومات والموضوعية التاريخية، فرتب الحوادث وسردها حسب ما يرويه التاريخ عموما، إلا أنه كان يطوع الوقائع التاريخية، ويفسرها من منظور قومي وطني، مثل "مصرع كليوباترا" و"قمبيز"، اقتداء بما كان يفعله الرومانتيكيون الفرنسيون، أمثال "لامارتين" و"فيكور هيجو" اللذين قرأ لهم وشاهد عروضا لمسرحياتهم، كما يقول هو نفسه في مقدمة ديوانه.

جمع شوقي في كتاباته المسرحية بين التيارين الكلاسيكي والرومانتيكي، فأخذ من الأول الدقة والنظام والموضوعية، وأخذ من الثاني النزعة القومية الوطنية، والشطحات الشعرية، وبصفة خاصة ما تعلق منها بالأحداث والمواقف العاطفية والغرامية، كما هو الشأن في مسرحيته "مجنون ليلى" التي جمع فيها ما جاء في كتاب الأغاني عن "ليلى والمجنون"، ومسرح تلك الأخبار والمعلومات التاريخية كما هي متواترة، غير أنه يجعل "ليلى" وزوجها

"ورد" وحبيبها "قيس" يسلكون سلوكا في علاقتهم بعضهم ببعض لا عهد للحياة العربية البدوية والقبلية به: فكيف يقبل عربي بدوي "ورد" أن يعطف على حبيب زوجته "أي قيس"؟! وكيف لعاشق متيم إلى حد الجنون "قيس" أن يسأل زوج حبيبته عنها ويبثه همومه؟! وكيف تجهر فتاة بدوية بالحب، وتكفر بالزواج القائم على العادة، وليس على الحب، الذي تعده شريعة الزواج الوحيدة، حيث تقول مخاطبة قيس :

كلانا، قيس، مذبوح قتيل الأب والأم
طعينان بسكين من العادة والوهم
لقد زوجت ممن لم يكن ذوقي ولا طعمي

إنها تساؤلات عديدة تساءلها الدارسون والنقاد، لأن البعض من تصرفات شخصيات مسرحية "مجنون ليلى" وسلوكاتها غريبة على العادات والتقاليد البدوية العربية، إلا أنها ليست غريبة عن تصرفات وسلوكات شخصيات المسرح الرومانتيكي الفرنسي، بما في دلك مسرحيات لامارتين. فالحب عندها فوق كل شريعة، وأوضح مثال على ذلك لامارتين نفسه في غرامياته.

أعجب شوقي بالمسرح الفرنسي وتأثر به، كما صرح هو نفسه بذلك في مقدمة ديوانه، فألف مسرحيات شعرية مثلما كان المسرح الفرنسي شعريا في مجمله، ولم يقتد به في المواضيع والمضامين بطبيعة الحال، لأنه يكتب لقارئ عربي ينتمي إلى حضارة عربية إسلامية، إلا انه تأثر بالبناء الفني الذي جمع فيه بين الصرامة الكلاسيكية والمرونة الرومانتيكية، كما تأثر بشيء من الانفتاح الفكري والوجداني في التصوير، وأظن أن شيئا من "لامارتين" يقف وراء ذلك.

وخلاصة القول، فإن "لامارتين" و"شوقي" معلمان شعريان، كان كل واحد منهما محطة فاصلة في تاريخ أدبه، ربطت بينهما روابط وعلائق، حيث اطلّع شوقي على نتاج لامارتين وأعجب به، إلى درجة أنه كان سباقا إلى ترجمة قصيدة "البحيرة" أواخر القرن التاسع عشر، والأرجح أن فعله ذاك كان الباعث في إقبال من ترجموها مرارا وتكرارا إلى اللغة العربية، وبذلك كان شوقي من أقوي الوسائط الأدبية بين لامارتين والأدب العربي.

ويبدو أن علاقة شوقي بلامارتين لم تكشف بعد عن خباياها وآثارها في كتابات شوقي أولا، وفي الأدب العربي ثانيا. ولاشك في أن دراسات مقارنة (منهجية ودقيقة ومعمقة) ستكشف الكثير من ذلك، أو شيئا منه على الأقل، الأمر الذي سيمكننا من فهم شعرنا فهما عميقا وتذوقه تذوقا أدق، ونقرب المسافة بيننا وبين الآخر أكثر، لأن التقارب في الذوق هو أفضل وسيلة إلى ذلك.

المراجع :

1. *Dictionnaire des littératures*, larousse, Paris 1992.
2. Lamartine (Alponse de), *Méditations poétiques, nouvelles méditations*, ed. Gallimard, Paris 1982.
3. أحمد شوقي: "الشوقيات"، (ج1-4)، مطبعة الاستقامة، القاهرة .1950
4. أحمد شوقي: "ليلى والمجنون"، (مسرحيات شوقي، ج1) موفم للنشر، الجزائر 1993.
5. د. شوقي ضيف: "أحمد شوقي شاعر العصر الحديث"، دار المعارف بمصر (د.ت).
6. محمد حلوش، بحيرة لامارتين ومترجماتها العربية، رسالة ماجستير (بإشراف د. عبد المجيد حنون)، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة عنابة .2002
7. د. محمد عنيمي هلال: "ليلى والمجنون في الأدب العربي والفارسي"، دار العودة، بيروت .1980
8. نجيب العقيقي: "من الأدب المقارن"، (الجزء الثاني)، مكتبة الأنجلو المصرية، ط 3، القاهرة 1976.